إشكالات القبح في المنظور الجمالي الإسلامي

أ.م.د. قيس إبراهيم مصطفى
جامعة الموصل / كلية الفنون الجميلة
قسم الفنون التشكيلية

ملخص البحث :

قديماً ، ما انفك القبح يثير الإشكالات في المواضع التي يحل فيها إن كانت في الشرع أو الفكر أو الفن وغير ذلك .. إذ كانت تثار في تلك المواضع أسئلة كثيرة تدور في ذهن المعنيين حول ماهية القبح ، وحقيقة وجوده ، وحول مظاهر القبح في الأشياء والأفعال ، والتباين الحاصل في موقف كل من علم الجمال وعلم الأخلاق منه .

وبرأينا تبقى هنالك مشكلة جوهرية لها علاقة مباشرة بتخصصنا في الجماليات الإسلامية وتتعلق باعتماد مظاهر القبح في الأدب والفن ، حيث لم يجد القبح فرصته في التعبير عن وجوده إلا في المجتمع الغربي الحديث والمعاصر الذي شاع فيه الحديث عما سمي بجماليات القبح ، لدى مفكري الجمالية الحديثة. وعندما استضافته (الاستطيقا) في بيتها ، ما لبث أن شاكس الجمال وزاحمه حتى أخرجه مذموما مدحورا . وأصبح القبح قيمة تطلب لذاته وهدفاً يسعى الفنان بإرادته إلى تحقيقه في عمله . حيث وجدوا فيه قيماً جمالية كان الإنسان غافلا عنها .

وقد تداعت هذه الإشكالية كثيراً ، ولم تعد مشكلة القبح مشكلة فنية فحسب بل وجدناها مشكلة أخلاقية في أصولها وفروعها ، أولاً وقبل كل شيء آخر . ومن جانب آخر ما وجدنا القبح ، في التصور الجمالي الإسلامي ، إلا صفة دنيا مذمومة تتصف بها المدركات الحسية والعقلية على حد سواء ، وتتصف به الأشياء كما تتصف به الأفعال ، وهو على الضد من الجمال ، إذ يثير الاشمئزاز والنفور ويبعث في النفس الضيق والألم لأنه الحالة المنكرة في الشرع والأخلاق أو الحالة المتخلفة في الفكر والعقل . وأما في الفن فأنه يمثل مرض يصيب الذوق بالفساد مثلما يصيب الأخلاق بالتفسخ . أما هدفنا الأساس ، في هذا البحث ، فهو تعرف مفهوم القبح والإشكالات المتعلقة به في ضوء التصور الجمالي الإسلامي .

لذا يهمنا في هذا الموضع ، ونحن نسعى لتأسيس نظرية جمالية إسلامية أصيلة قائمة على التصور الإسلامي الشمولي والواقعي للكون والحياة والإنسان ، بيان موقف الإسلام من إشكالات القبح المختلفة وتداعياتها في الشرع والأخلاق والفكر والفن .

Abstract :

Old, has continued to ugliness raises problems in positions that resolves where it was Islamic low, thought, art and so on .. It was raised in those positions many questions revolve in the minds of those concerned about what ugliness, and the fact that its existence, and about the signs of ugliness in the things and deeds, the discrepancy in the attitude of both the aesthetics and ethics of it. In our opinion remains there is a fundamental problem that has a direct relationship with our specialize in Islamic aesthetics and relate to the adoption of the manifestations of ugliness in literature and art, where the ugliness did not find a chance to express his presence only in modern and contemporary Western society in which to talk about what is called the aesthetics of ugliness, the modern thinkers aesthetic popularized. When hosted (esthetic) in her home, just that dissentious beauty and horn in even directed disgraced and rejected. And it became the ugliness value of asking for the same and a goal of his own artist seeks to achieve in his work. Where they found it valuable aesthetic man was oblivious to it. This problem has faltered so much, is no longer a problem ugliness just a technical problem, but we found a moral problem in assets and branches, first and foremost. On the other hand, what we found ugliness, the Islamic aesthetic perception, but the recipe minimum reprehensible characterized by sensory and mental perceptions alike, and characterize things as they are characterized by acts, which is on the opposite of beauty, as it raises disgust and revulsion and send a self-distress and pain because the situation reprehensible in Islam, morality or the backward situation in thought and mind. As in art, it is a disease that affects the taste of corruption as it affects the ethics with disintegration. As our main objective, in this research, it is known as the concept of ugliness and problems related to it in the light of the perception of the Islamic aesthetic. So interested in this position, and we are seeking to establish an Islamic authentic aesthetic theory based on Islamic concept holistic and realistic of the universe, life, and human, a statement of the position of Islam is confused about the different ugliness and its repercussions in Islam, morality, thought and art.

الفصل الاول:
مقدمة البحث

أولاً : مشكلة البحث :

قديماً ، إئتلف الناس على عدم إئتلاف القبح ، وذلك بوصفه صفة دنيا أو حالة منكرة في الأشياء والأفعال ... ومنذ القدم ، أيضاً ، ما انفك القبح يثير الإشكالات في المواضع التي يحل فيها إن كانت في الشرع أو الفكر أو الفن وغير ذلك .. إذ كانت تثار في تلك المواضع أسئلة كثيرة تدور في ذهن المعنيين حول ماهية القبح ، وحول مظاهر القبح في الأشياء والأفعال وفي الطبيعة والفن ، والتباين الحاصل في موقف كل من علم الجمال وعلم الأخلاق منه . وبرأينا تبقى هنالك مشكلة جوهرية لها علاقة مباشرة بتخصصنا في الجماليات الإسلامية وتتعلق باعتماد مظاهر القبح في الأدب والفن ، وكذلك بالترويج لموضوعات القبح في الطبيعة والحياة وتسويغها في عيون الناس على أنها تمثيل لقيم جمالية جديدة في عالم الإبداع بعد محاكاتها في أعمال فنية ، فلدى إطلاعنا على كثير من الأعمال الفنية والأدبية في بلادنا نجد إعتماد بعض أصحابها القبح في إخراج هذه الأعمال وذلك إما جريا وراء تقليد الفن الغربي الحديث والمعاصر في مدارسه التي اهتمت بالقبح ، وإما تستر البعض الآخر وراء نظرية القبح ليخفوا عجزهم وضعف إمكاناتهم الإبداعية وخبرتهم الفنية .. فقد تداعت هذه المسألة ولم تعد مشكلة القبح مشكلة ذوقية فحسب ، بل وجدناها مشكلة أخلاقية أولاً وقبل كل شيء .. لذا تحتم علينا البحث فيها وتقصي أسبابها ونتائجها وتداعياتها المختلفة انطلاقا من مبادئنا وتصوراتنا الجمالية الإسلامية .

ثانياً : أهمية البحث والحاجة إليه :

قديماً ، لم يحض القبح بأية مكانة فوق مكانته ، إذ كان منبوذاً مكروها ، وكان الجمال يطارده مثلما يطارد النور الظلام . لان الجمال ، من حيث هو قيمة عليا ، ارتبط بالأساس بقيم الحق والخير والفضيلة ، وكان القبح في عزلة خانقة ، لم يجد فرصته في التعبير عن وجوده إلا عندما انحل هذا الرباط في المجتمع الغربي الحديث في القرن التاسع عشر عندما بدأ التنظير للقبح وصار المعنيون به يروجون له على انه يتضمن قيماً جمالية كان الإنسان غافلاً عنها ، وشاع الحديث عما يسمى بجماليات القبح أي بتحول القبح في الطبيعة والحياة إلى جمال في العمل الفني .. وعدوا ذلك كشفاً جديداً في عالم الفن والحرية والحداثة . وأصبح القبح قيمة تطلب لذاتها وهدفاً يسعى الفنان بإرادته إلى تحقيقه في عمله .

وإهتمامنا بدراسة القبح لا ينصب في باب الترويج له أو التسويغ لقبوله وإئتلافه بل بالعكس ، فبالنسبة لنا لا نرى في القبح إلا خطراً على المجتمع . وبمعنى أدق نراه يمثل حالة منكرة في الشرع والأخلاق ، أو حالة متخلفة في الفكر والعقل ، وأما في الفن فانه كان يمثل الحالة التي يتوجس الفنان من الوقوع بها أو الاقتراب منها . ولكن وبعد أن صار مطلباً في الفن الغربي الحديث لا يمكن أن ننظر إليه إلا على انه يمثل مرضاً يصيب الذوق بالفساد ، كما يصيب الأخلاق بالتفسخ لأنه يعمل على تقويض المعايير وهدم القيم والمبادئ في المجتمع .

ويهمنا في هذا البحث ، ونحن نسعى للمشاركة في تأسيس نظرية جمالية إسلامية تتسم بالأصالة وتقوم على التصور الإسلامي الشمولي.. بيان موقف الإسلام من القبح . والوقوف بوجه دعاة القبح والمروجين له والمتسترين وراءه ، وذلك بكشف المفاهيم والمغالطات التي تدور حوله والإشكالات المتعلقة به وتداعياتها في الشرع والأخلاق والفكر والفن .

ثالثاً : هدف البحث :

تعرف مفهوم القبح والإشكالات المتعلقة به في ضوء التصور الجمالي الإسلامي .

رابعاً : منهجية البحث :

اعتمد الباحث المنهج الخاص بتحليل المحتوى الفكري الذي تضمنته سياقات البحث وأهدافه المختلفة ، وذلك انطلاقاً من طبيعة البحث الفكرية النظرية الخالصة .

خامساً: حدود البحث :

حدد البحث اهتمامه بدراسة مفهوم القبح ضمن الحدود الزمانية والمكانية والموضوعية وفقاً للإشكالات الآتية :

١- إشكالية القبح في وجوده .

٢- إشكالية القبح في الشرع والعقل .

٣- إشكالية القبح في الفن .

سادساً : تحديد المصطلحات :

معنى القبح :

القبح في اللغة من الصفات ، ويقع على الصور والمعاني ، على حد سواء ، ولا يختلف أهل اللغة في تحديد معناه كثيراً ، ولكنهم اجتهدوا في بيان أنواعه . فهو عند الراغب الأصفهاني (ت : ٥٠٢هـ) (ما ينبو عنه البصر من الأعيان وما تنبو عنه النفس من الأعمال والأحوال)(١) . فالقبح لديه نوعان محسوس ومعقول . ويرى ابن منظور أن (القبح ضد الحسن يكون في ألصورة والفعل قبح يقبح قبحاً وقبوحاً وقباحاً وقباحة وقبوحة وهو قبيح والجمع قباح وقباحى والأنثى قبيحة ...) قال الأزهري هو نقيض الحسن عام في كل شيء ، وفي الحديث النبوي الشريف (لا تقبحوا الوجه) معناه لا تقولوا انه قبيح فان الله صوره وقد أحسن كل شيء خلقه وقيل أي لا تقولوا قبح الله وجه فلان ... وأقبح فلان أتي بقبيح واستقبحه ، رآه قبيحاً والاستقباح ضد الاستحسان)(٢) .

ومفهوم القبح في الاصطلاح الفلسفي إختلف باختلاف وجهات نظر الفلاسفة إليه ، وهو على العموم (المناف للطبع ، أو المخالف للغرض ، أو المشتمل على الفساد والنقص ، وهو مقابل الجميل والحسن . وقيل : كل ما يتعلق به المدح يسمى حسناً وكل ما يتعلق به الذم يسمى قبيحاً)(٣) .ومعنى ذلك أن مفهوم القبح إذا جاء في مجال الطبائع الإنسانية فهو المنافي لها ، وإذا جاء في مجال الغايات فهو

المخالف للغرض ، وإذا جاء في مجال الكمال فهو النقص . أما إذا جاء في مجال الحسن والجمال فهو المضاد لهما .والقبح عند (توما الاكوبني) قد اخذ مفهومه انطلاقاً من مقولة الكمال ، بوصفها معياراً تقاس به كمالات الأشياء ، وعلى هذا الأساس فالقبح عنده (هو ما كان غير حاصل على الكمال)(٤) .

أما القبح عند الفيلسوف هيجل (يكون على علاقة وثيقة بدرجة ما بالمضمون ، ولذا فانه لا يجد ما يحول دون القول بان القبيح يمكن أن يكون موضوعا للتمثيل والتصوير)(٥) .

والقبح قد تناولته كثير من العلوم الإنسانية ، كعلوم الدين والأحكام الشرعية ، وعلم الجمال ، وعلم الأخلاق ، وعلم النفس ، وعلم اللغة .

الفصل الثاني:
منطلقات نظرية أساسية في البحث

أولاً : مفهوم القبح في الفلسفة الإغريقية :

إفترض (أفلاطون) وجود عالمين ، الأول علوي وهو عالم المثل ، والثاني سفلي وهو عبارة عن صورة مشوهة وناقصة للعالم الأول ، وعالم المثل هو عالم الخير والجمال والفضيلة ، أما الجمال فهو صورته الحقيقية ، فاقترن الجمال عنده بالخير والفضيلة . ورأى أن الجمال في عالم المثل هو الجمال الحقيقي المطلق . أما الجمال في أشياء عالمنا فهو جمال نسبي ، حيث يرى (أن الأشياء ليست جميلة جمالاً مطلقاً ، وإنما تكون جميلة عندما تكون في موضعها ، وقبيحة عندما تكون في غير موضعها)(٦) . وهذه الأشياء التي تحدث عنها أفلاطون ما هي إلا صورة لمثال علوي لا يدرك إلا بالعقل ولكن هذه الصورة تبقى في مرتبة دون أصلها الموجود في عالم المثل . ومع ذلك فان هذه الأشياء عند أفلاطون (ليست قسمين : جميلة وقبيحة ، بمعنى أن ما ليس جميلاً يكون قبيحاً حتماً ، وإنما هناك مرحلة يخلو فيها الشيء عن كلا الوصفين ، فكذلك الأمر بالنسبة لغير الجميل)(٧) . وأفلاطون عندما تحدث عن القبح لم يتحدث عنه إلا على انه صفة نسبية يمكن ملاحظتها في عالمنا الحسي . ولا وجود للقبح المطلق في تصوره .

أما (أرسطو) ، فقد آمن بمثالية أستاذه أفلاطون ، لكنه سلك طريقاً مغايراً . فجمال الموجودات الحسية عنده مشابه ، في صورتها ، لأصلها في عالم المثل . ولكن هذه الموجودات تقترب أو تبتعد جمالاً أو قبحاً كلما اقتربت من الصورة وابتعدت عن المادة . ويرى أرسطو انه (لا يخلو موجود في العالم من الصورة . فكل موجود فهو صورة ومادة أو (هيولي) . وتترقى الموجودات في شرف الوجود كلما عظم نصيبها من الصورة وقل نصيبها من الهيولي فالموجودات الخسيسة توشك أن تكون هيولي محضاً خالية من كل صورة . فلا فرق بين جزء وجزء ولا بين فرد وآخر من الجنس نفسه)(٨) .

وفي نظرية المحاكاة الفنية عند أرسطو التي يرى فيها أن الفن يحاكي الموجودات في الواقع والطبيعة ، نرى انعكاساً واضحاً لذلك المبدأ ، فقد (كان أرسطو يشير إلى القبح من زاوية أخرى فيما يتعلق بالمحاكاة

في الفن حسبما دونه في كتاب الشعر ، بأن التقليد كثيراً ما يكون مقبولاً ممتعاً حتى ولو كان الشيء المقلد نفسه غير مرغوب فيه ويعني ذلك صفة القبح)(٩) . فالتقليد هو محاكاة الشيء المقلد بانتزاع صورته والتشبه به والتقرب منه ، وجمال العمل الفني لديه يعود إلى دقة المحاكاة وإتقان التقليد بغض النظر عن الشيء المقلد إن كان جميلاً أو قبيحاً.

وأما أفلوطين ، ففي مفهومه للقبح ، قد تأثر كثيراً بالنزعة العقلية المثالية في فلسفة أفلاطون . ولكنه تخطاه في درجة إبتعاده عن عالم المادة وكراهيته لها وتقربه من عالم الصورة المعقولة ، الأمر الذي قاده إلى تبني نزعة صوفية تدرك الجمال على انه حقيقة علوية نورانية متحدة بذات الإله ، من حيث هو مصدر النور والجمال (الذي يشع في الكون وتتغلل أشعته في الأشياء فتكتسب من صفته بقدر ما تنال منه . ومن ثم تبدو الأشياء في سلم هابط من الجمال المطلق إلى القبح . وبينهما سلسلة متصلة من الأشياء ، كل حلقة منها اقل من سابقتها درجة في الجمال)(١٠) .لذلك تكون الأشياء قبيحة في نظره إذا ابتعدت كلياً عن مصدر النور والجمال . والنفس ، عنده ، تستضيء بالجمال النوراني وتنجذب إليه لأنه من طبيعة منسجمة مع طبيعتها ، لذلك يقول أفلوطين (عندما تصادف النفس ما هو جميل تندفع نحوه لأنها تتعرف عليه إذ انه من طبيعة مشابهة لطبيعتها . أما حين تصادف القبيح فهي تصدف عنه وتنكمش على نفسها لأنه مغاير لطبيعتها . لذلك يرى أفلوطين أن كل ما تشكل بحسب فكره معقولة صار أجمل ، فالجميل هو المصور والقبيح هو ما يخلو من الصورة المعقولة)(١١) .

ولكن النفس عند أفلوطين سوف لن تستطيع أن تستقبل الجمال النوراني الباطني الذي هو من طبيعتها إلا بتطهرها وتخلصها مما علق بها من عالم المادة ، (فالإنسان يأتيه القبح بسبب شيء آخر غريب عن طبيعته ولكنه قد اكتسبه ، وعليه إذا أراد النظافة من جديد أن ينظف نفسه ويطهرها . فالنفس لا تصير قبيحة إلا من خلال اختلاطها بالمادة وارتباطها بالجسم)(١٢) . وعلى هذا الأساس يكون القبح من طبيعة المادة لا من طبيعة النفس ، فالنفس في حقيقتها جوهر نقي خالص .

ثانياً : مفهوم القبح في القرآن الكريم :

لقد جاءت لفظة القبح في النص ألقرآني مرة واحدة فقط ، في قوله تعالى (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنْ الْمَقْبُوحِينَ) (القصص / ٤٢) والمقصود بهم الكفار . وصفة القبح التي وصفها بهم ألقرآن تعبير شامل وشاف عن حالهم يوم القيامة . وهذه الصفة يمكن النظر إليها من زاويتين الأولى صفة ذم أطلقها ألقرآن على الكفار ووصمهم بها . والثانية موضوعية تعبر عن حال الكفار وما يصيبهم من العذاب الشديد .

وقد عبر ألقرآن الكريم عن مفهومه للقبح بألفاظ مختلفة ، كما في لفظة الفساد ، قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم / ٤١) وفساد الشيء ضد صلاحه ،والإفساد غير الإصلاح وهو على الضد من التكون والتشيؤ ، وظهور الفساد في البر والبحر تعبير عن حالة القبح والتلوث البيئي الحاصل فيها . كما جاءت لفظة الخبيث لتعبر عن المفهوم ألقرآني

للقبح ، كما في قوله تعالى (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) (النساء / ٢) والخبيث ضد الطيب وهو عند ابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ) (الرديء من كل شيء فاسد يقال هو خبيث الطعم وخبيث اللون وخبيث الفعل . والحرام البحت يسمى خبيثا من الزنا والمال الحرام والدم وأشبهها مما حرمه الله تعالى . ويقال في الشيء الكريه الطعم والرائحة خبيث مثل الثوم والبصل والكراث ... وقال الله تعالى في نعت النبي (صلى الله عليه وسلم) (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) (الأعراف /١٥٧) فالطيبات ما كانت العرب تستطيبه من المآكل في الجاهلية مما لم ينزل فيه تحريم ... والخبائث ما كانت تستقذره ولا تأكله(١٣) .

كما عبر القرآن الكريم عن مفهومه للقبح بألفاظ أخرى كما في قوله تعالى (إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان / ١٩) فمعنى أنكر الأصوات أي أقبح الأصوات التي تصل إلى حالة السمع . ومن جهتين الأولى المصدر وطبيعة صوته المزعج والثانية السامع المتلقي في انزعاجه من هذا الصوت .

ثالثاً : مفهوم القبح في الفلسفة الحديثة والمعاصرة :

ما عاد فلاسفة القرنين الماضيين ينظرون إلى القبح تلك النظرة التقليدية . فقد انقسم القبح عندهم إلى قسمين ، الأول هو مفهوم تقليدي يقع في الأشياء والأفعال وهو مضاد للجمال ، ويبعث في النفس الاشمئزاز والنفور ، وهذا النوع من القبح لا يثير اهتمام الفلاسفة المحدثين والمعاصرين من قريب أو بعيد . وأما الثاني فهو نوع من أنواع القيمة الجمالية (الاستطيقية) وله قدرة تعبيرية في مجال الفن ، حيث اخذ الفلاسفة ينظرون له ضمن أبحاثهم التي أطلقوا عليها ما سمي بجماليات القبح . (فقد رأى أصحاب النظرية الانفعالية أن الموضوعات القبيحة إلى حد ميئوس منه يمكن أن توصف بأنها استطيقية ، ذلك أن الحكم الجمالي يقوم على أساس الشعور بالانفعال الذي يعبر عن الموضوع . وتقدير أي موضوع إنما يكمن في قدرته على التعبير وتوصيل الانفعال . و(القبح – بمعنى ما – يعبر عن القيمة الجمالية بالمعنى الواسع) ، ذلك المعنى الذي يهدم كل خط فاصل بين الجمال والقبح)(١٤) . ويرى (جيروم ستولنتيز) انه قد (طرأ تحول هائل على مقولة الجمال . ولكن هناك تغيراً أعظم طرأ على لفظ (القبيح) وأهميته بوصفه مقولة استطيقية . إن التحول يبدأ ، عندما يضطر الناس إلى النظر إلى بعض الموضوعات على إنها قبيحة وذات قيمة استطيقية في نفس الآن . فهم يجدون أن بعض الأشياء ليست جميلة بأي معنى مألوف ، ولكنها مع ذلك طريفة أو تجذب الانتباه . ولعل ابرز أمثلة هذه الظاهرة وأكثرها يوجد في فني القرنين الأخيرين ، الذي عمل على توسيع نطاق الإدراك الحسي الاستطيقي إلى أبعد حد)(١٥) . وهذا يعني أن مقولة الجمال والقبح ما عادتا مقولتان متضادتان وإنما أصبحتا تمثلان نوعان مهمان من أنواع القيمة الجمالية (الاستطيقية) . فمقولة القبح (قد رسخت أقدامها في مجال القيمة الجمالية جنبا إلى جنب مع الجميل والجليل . ولم يعد الفن يعبر عما هو سار فحسب ، بل هو تعبير بالمعنى الواسع للكلمة ، أي تعبير عن الجميل والقبيح والجليل أيضا . وقد تجلى ذلك واضحا في العديد من المدارس المعاصرة)(١٦) .

ووفقا لهذه المعطيات نرى أن (موضوعات الساعة في الفن الحديث منذ أن بدأت الثورة على قواعد وتقاليد علم الجمال القيم الكلاسيكي قد تمثلت في تذوق القبح الذي غلب على كل لون من ألوان الفنون في الأدب وفي التصوير والنحت حتى أصبح وصف النقص في الجسم والروح ، وتصوير جوانب التشويه سمة

من سمات الفن الحديث)(١٧) . ويقرر (ستولنتيز) أن (الجمال بالنسبة إلى المفكر الاستطيقي يشتمل بالفعل على الجليل ، والرهيب ، والساخر ، والمضحك ، فلم لا يشتمل على القبيح أيضا ؟)(١٨) . والحقيقة أن القبح عندما دخل ميدان الاستطيقا زاد هذا الميدان هماً على همه وادخل مفهوم الجمال ، في دراسته ، في متاهات جديدة .

الفصل الثالث :
إجراءات البحث

إشكالات القبح

أولاً : إشكالية القبح في وجوده :

إبتداءً ، لنسأل أنفسنا السؤال الآتي : هل للقبح وجود حقيقي يمكن إدراكه حسيا أو عقليا ؟ ، في الحقيقة ليس من السهولة الإجابة على هذا السؤال ، فهناك إجابات متباينة جداً حوله ، كما انه ليس من المعقول أن ننكر وجود القبح في العقل ، ولكن ، ربما ، من المعقول أن ننفي وجوده في الواقع .. فالتهانوي (وهو من علماء القرن الثاني عشر) يرى أن (القبح في الأشياء إنما هو بالاعتبار لا بنفس ذلك الشيء ، فلا يوجد في العالم قبيح إلا باعتبار ... و قبح المعاصي ، إنما ظهر باعتبار النهي)(١٩). فالقبح عنده ما هو إلا صفة ذاتية يطلقها الإنسان على الذي تنفر نفسه منه ، فعلة القبح تكمن في ذات المتلقي نفسه وليس في الشيء الموصوف بالقبح ، لان مبدأ الصفات عنده ينطلق من الواصف وليس من الموصوف . فشرب الخمر ، على سبيل المثال ، كان من الأمور التي يستحسنها عرب قبل الإسلام ، ولكن عندما نزل التحريم في ألقرآن الكريم أصبح من الأمور التي يستقبحها المسلمون .. وهكذا يكون قبح الرائحة النتنة هو باعتبار من لا يلائمها طبعه ، ويؤكد هذا المعنى الفيلسوف المعاصر (جورج سانتيانا) الذي (قد أعلن بأنه ليس هناك شيء قبيح في ذاته ولكنه يصبح كذلك لأننا نتوقع شيئاً مخالفا له في هذه اللحظة)(٢٠) . ويكون القبح تأسيساً على هذه المواقف ذا مفهوم نسبي ضمن مجال الأحكام الذوقية .

أما المتصوفة المسلمون فإنهم يذهبون إلى ابعد من ذلك في نفيهم لوجود القبح في جميع عناصر الكون والحياة ، وذلك في محاولة منهم لتنزيه الخالق (جل وعلا) عن فعل الشرور والقبائح (فليس في الكون قبح أو شر عند هؤلاء المتصوفة إلا بالمقابلة بين بعض الموجودات وبعضها دون الوجود المطلق)(٢١) . والتهانوي يتفق معهم بأنه (لا يوجد في العالم قبيح إلا باعتبار فارتفع حكم القبيح المطلق من الوجود فلم يبق إلا الحسن المطلق)(٢٢) . وهنا نلاحظ مدى التقارب الحاصل بين هذه الآراء وما جاء به أفلوطين في نفيه لوجود القبح المطلق . فإذا جاء القبح بمعنى النقص ، على سبيل المثال ، فان النقص المطلق هو العدم المحض أي زوال جميع كمالات الشيء أو عناصره لدرجة أن لا يبقى في الشيء أي شيء ، وعلى هذا الاعتبار انتفى القبح المطلق من الوجود .

أما حجة المتصوفة فهي أن الخالق سبحانه وتعالى قد أحسن كل شيء خلقه ، قال تعالى (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (النمل / ٨٨) فالجمال هو مظهر من مظاهر الخلق الإلهي في الكون والحياة ، أما القبح فالله (جل وعلا) منزه عنه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، وما نراه من قبح في بعض مظاهر الحياة والطبيعة لا يمثل إلا صورة نسبية مجتزأة من الحقيقة الجمالية الكبرى ، وعلى ذلك تكون الحيوانات البشعة المظهر والحشرات المقززة المنظر ، جميلة في نظر المتصوفة بالأصالة إلى مبدعها وخالقها (جل وعلا) فهي جميعها تخضع لنظام التناظر في توزيع أعضائها ، والتوازن في علاقات أشكالها وأفعالها . فضلا عن إحكام صنعها ودقة خلقها.

ولكن المفكرون الأستطيقيون ينكرون ، أيضاً ، وجود القبح ، غير أن سبب إنكارهم يختلف عن سبب إنكار المتصوفة . ويوضح (ستولنتيز) هذا الأمر ، من خلال محاولته للإجابة عن السؤال المتعلق بمصير القبح في معناه التقليدي ، قائلا (نستطيع أن نجد في تفكير كثير من مفكري الأستطيقا المعاصرين نوعين من الإجابة عن هذه الأسئلة . وكلا النوعين يتضمن مراجعة جذرية للتقابل التقليدي بين الجمال والقبح . فالأول منهما يضيق مجال القبح بان يحاول إثبات أن ما كان يعد في كثير من الأحيان قبحاً ليس قبحاً على الإطلاق . والرأي الثاني ، الأشد تطرفاً ، ينكر وجود القبح تماماً)(٢٣) .

ولو عدنا إلى السؤال السابق عما إذا كان للقبح وجوداً حقيقياً في العقل أو الواقع ، فسنرى أن هناك موقف مغاير تمام عما ذكرناه قبل قليل .. يرى أن لظاهرة القبح وجود موضوعي حقيقي كظاهرة الجمال ، ولها سمات وأسس تقوم عليها وتكون ثابتة قبل وجود المدرك و مستقلة عنه تمام الاستقلال ، وهي قادرة على إحداث صدمة تفاجئ به عقل المدرك وتحمل صاحبه على الابتعاد والنفور ، وشدة الصدمة تزداد وقعها بوقع القبح في نفس المدرك .

ومجيء لفظة القبح في ألقرآن الكريم دليل على أنها صفة حقيقية موجودة في المكان الذي تحل فيه، قال تعالى (مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) (القصص / ٤٢) والإنسان قادر بفضل ملكاته تعرف القبح والشعور به . وهذا يعني أن للقبح قيمة مطلقة أيضاً تتجاوز قيمته النسبية المتعارف عليها في عالمنا الأرضي .. فالنار التي أعدها الله (جل وعلا) للكفار والمشركين في الحياة الآخرة أراد لها أن تكون عالماً ممثلاً للقبح الأبدي الخالد، قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (الأعراف /٣٦) لذلك نرى أن الذي يؤمن بوجود الجمال عليه أن يؤمن بوجود القبح أيضاً في جميع أنواعه ومظاهره المختلفة والمدركة بالعقل أو الحس . والإيمان بنصف الحقيقة ليس إيمان على الإطلاق . فالقبح ظاهرة عيانية تواجه جميع ملكات الإنسان الحسية والعقلية والروحية والنفسية .. ومظاهر القبح (في الواقع الموضوعي) باتت تضايقنا في جميع مفاصل حياتنا ، وما نعانيه اليوم من مظاهر التلوث البصري والسمعي والشمي .. دليل حسي واضح على ذلك .

وفي دراستنا للجمال تبرز قيمة القبح كضرورة لا غنى عنها لتعيين الجمال وتمييزه ، فنحن لا نستطيع أن ندرك الجمال ونقدر قيمته بمعزل عن القبح والعكس صحيح أيضاً . فمجرد التفكير في صور الجمال

يستدعي حضور ما يقابلها في الذهن من صور القبح ، لأنهما في جوهرهما ضدان لبعضهما البعض .. وهكذا في جميع الأضداد الأخرى ، كالخير والشر ، والحق والباطل ، والنور والظلام ، والبياض والسواد ، وغير ذلك .

ثانياً : إشكالية القبح في الشرع والعقل :

لقد اثار المسلمون مسألة على درجة كبيرة من الأهمية تتعلق بمرجعية القيم الاعتبارية في الأشياء والأفعال وموقف كل من الشرع والعقل في تحسينها أو تقبيحها . وقد كان المعتزلة هم أول من كشف اللثام عن هذه الإشكالية بعد أن لم تكن معروفة سابقاً على الصعيد الشرعي والفكري ، بحسب رأينا ، فقد رأوا أن (جميع المأمورات بها حسنة والمنهيات عنها قبيحة في أنفسها والعقل يحكم بالحسن والقبح إجمالاً)(٢٤) . واعتقدوا على سبيل المثال ، أن (الكذب فيه قبح ذاتي ، والصدق فيه حسن ذاتي ... والشرع بأمره بأشياء ونهيه عن أشياء ، إنما يتبع في ذلك ما في الأشياء من حسن وقبح ... لأنه ليس مستقلا في أمره ونهيه بل هو تابع فيهما للحسن والقبح الذاتيين)(٢٥) .

وعلى الرغم من ذلك فان المعتزلة لم يعترضوا لا هم ولا غيرهم من المفكرين المسلمين على الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ولكنهم اعتقدوا أن قيمة الشيء تكمن في ذاته وان الشرع جاء ليخبرنا عنها ، فحسب . فالحسن والقبح لديهم (ذاتيان في الأشياء وأنهما يدركان بالعقل لا بالشرع ، فالعقل هو المقياس وليس الإرادة الإلهية ، والله يأمر بالخير لان الخير حسن في ذاته ، وينهى عن الشر لان الشر قبيح في ذاته . فالصدق والشجاعة والكرم والعفة ، الحسن فيها ذاتي ، والحسن لذاته : هو ما كان منشأ الحسن فيه ذات الشيء . والكذب والجبن والبخل القبح فيها ذاتي .

والقبيح لذاته : ما كان منشأ القبح فيه ذات الشيء . ومعنى هذا أن الخير هو خير دائماً ، والشر هو شر دائماً) (٢٦). وهذا يعني ان العقل يستطيع ان يميز بين الخير والشر ، او بين الجمال والقبح بدون حاجة إلى ورود الشرع او نص سماوي ، فقد اتخذ المعتزلة من العقل منهجا تأويلياً ساروا عليه ووثقوا به كل الثقة ورأوا أن ما قبح برأي العقل يكون قبيحا برأي الشرع أيضاً ، فأصبح العقل بالنسبة لهم معياراً تقاس به الأشياء والأفعال من حيث حسنها أو قبحها .

ومع ذلك ، فإننا نعتقد بان المسلمين لم يختلفوا في موقفهم من أنواع القبح المتعلقة بالأشياء المنافرة للطبائع أو المتعلقة بالأشياء المخالفة للغرض التي جاءت من اجله ، أو تلك الأشياء المتعلقة بصفات النقص .. ولكنهم اختلفوا بشان الأفعال التي نهى الشرع عنها أو التي ذم عليها فاعلها . وعندما أثار المعتزلة هذه المسألة ، ثارت حولهم ضجة كبيرة انقسم فيها المعنيون بين مؤيد ومعارض . وكان الاشاعرة على رأس المعارضين ، حيث وجدوا أن (الحسن ما ورد الشرع بالثناء على فاعله ، والقبيح ما ورد الشرع بذم فاعله ، وليس الشرع يمدح ويذم ويوجب وينهي ، تبعاً لما في الشيء من حسن وقبح ذاتيين ، بل الحسن والقبح تابعان لأمر الشرع ونهيه ، فالشرع في أمره ونهيه مثبت لا مخبر ، ولا شيء حسن لذاته ، ولا قبيح لذاته ، ولو عكس الشارع فأمر بالكذب ونهى عن الصدق لكان الكذب حسنا والصدق قبيحا . ولهم على ذلك أدلة أهمها : أن الحسن والقبح لو كانا ذاتيين لم يتخلفا ولم يتوقفا على شروط . فان ما بالذات لا يتخلف)(٢٧). ولا يكون تابعا لغيره في الحكم والتقدير ، وعلى سبيل المثال ، فان عملية الجماع بين الرجل والمرأة تكون

مصحوبة ، ما من شك بلذة ، ولكن هذه اللذة لا تكون حسنة أو قبيحة بذاتها وإنما يتوقف ذلك على حكم الشرع وتقييمه لها . فالشرع قد اصدر بشأنها حكمين متناقضين : فهي حسنة إن جاءت بعد عقد النكاح الشرعي ، وإلا فهي مستقبحة ومنهي عنها إن جاءت قبله عن طريق الزنا .

ويؤيد (ابن حزم الأندلسي) موقف الأشاعرة بقوله (ليس في العالم شيء حسن لعينه ولاشيء قبح لعينه لكن ما سماه الله تعالى حسناً فهو حسن وفاعله محسن) . قال الله تعالى (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) (الإسراء / ٧) وقال تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن / ٦٠) وما سماه الله تعالى قبيحاً فهو حركة قبيحة وقد سمى الله تعالى خلقه لكل شيء في العالم حسناً فهو كله من عند الله تعالى حسن ، وسمى ما وقع من ذلك عباده كما شاء فبعض ذلك قبحه فهو قبيح ، وبعض ذلك حسنه فهو حسن)(٢٨) لذلك انتفض الأشاعرة مما جاء به المعتزلة وراو أن قيمة الأشياء والأفعال لا يحددها العقل لأنها لم تكتسب قيمتها بذاتها بل بقدرة الخالق (جل وعلا) وبمشيئته . لان الله عندما خلق الأشياء قدر لها عناصرها التكوينية وخصائصها المميزة ، قال تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر / ٤٩) .

فأودع الخالق في بعضها صفات كمال وحسن وأودع في الأخرى صفات نقص وقبح . ثم أرسل الله أنبياءه ورسله وانزل كتبه وشرائعه ليرشد الناس إليها ، كما أودع في الإنسان ملكة العقل ليعمل بالشرع ويأخذ بما أمر به ويترك ما نهى عنه ، قال تعالى(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ) (المائدة / ٣) فلأن الله (جل وعلا) هو مصدر التشريع في الإسلام ، لهذا أصبحت جميع الأمور التي حرمها الشرع قبيحة في نظر المؤمنين بالدين الإسلامي ، وقد تمكن الشرع من غرس كراهية هذه المحرمات وغيرها في نفوسهم . والشرع عندما يحرم بعض الأشياء يجعل قبحها ثابت وبشكل مطلق في نفوس الناس ، بخلاف العقل الذي يتغير تقديره بتغير الزمان والمكان . فلما كانت العقول مختلفة باختلاف أصحابها ، فان ما يحكم به العقل بالحسن أو القبح هو أمر نسبي يتعلق بتصور هذا العقل أو ذاك ، وعلى هذا الأساس فالشرع لا يمكن أن يكون تابعا للعقل وإنما متبوعا ، وإلا ما عد شرعا أبداً.

ثالثاً : إشكالية القبح في الفن :

أن علاقة الفن بالأخلاق كانت بلا شك علاقة حقيقية وقديمة في المعتقدات الدينية والأفكار الفلسفية والفنية والجمالية ، على حد سواء . فإذا كان الفن يتكون من الشكل والمضمون فان مضمون الفن هو المعني أساساً بالأخلاق . ولكن مظاهر القبح في العمل الفني كثيرة ، أهمها ما يتعلق بموضوع بحثنا هذا ، وهو أن يأتي العمل الفني بأشكال ومضامين مخالفة للأعراف والمعتقدات الدينية والأخلاقية للمجتمع ، أو مخالفة للذوق العام . أما إذا فهم (القبح على انه قصور العمل الفني عن تحقيق شروط فنية معينة ، أو على انه فقدان معيار جمالي معين ، فلا يجوز هنا اعتبار القبح قيمة يسعى الفن إليها أو موضوعا في فلسفة الجمال لأنه انتقاص للقيم الفنية ونقص في العمل الفني)(٢٩) . أي إذا جاء العمل الفني ناقصا في شروطه التكوينية ويظهر ضعفاً في إمكاناته الفنية والتقنية والأسلوبية ، أو بقصور المادة (الخامية) من حيث عدم كفايتها أو صلاحيتها للعمل الفني . ونحو ذلك ، فهذا النوع من القبح الفني لا يدخل في الدراسات

والتقديرات النقدية والجمالية . ولكن (إذا أراده الفنان أن يضمنه لهدف ما في نفسه لكي يزيد من قيمته الفنية والجمالية ، فانه يدخل في هذه الحالة ضمن علم الجمال ، ويكون له قيمته ، لأنه إنما يوجد لكي يحقق شروط فنية معينة ، يتطلبها العمل الفني لكي ينجح ، ومن ثم يتحول معنى القبح إلى قيمة ايجابية شانها شان الجمال سواء بسواء) (٣٠). والنظرية الانفعالية في الفن (ترى الفن تعبيراً ، وترى أن وجود شيء غير جميل على الإطلاق ، أي غير معبر ، إنما يقع خارج مجالات (علم الجمال) تماما . فإذا كان هناك قبح (غير استطيقي) أي بالمعنى الشائع – فلا شأن لنا به على الإطلاق) (٣١).

ولكن إذا اتخذ القبح موضوعاً في العمل الفني وبشكل مقصود ، فهذا يعني أننا إزاء إشكالية أخلاقية معقدة ، وذلك بإسباغ القيم الجمالية على تلك الموضوعات المتسمة بالقبح في أشكالها أو مضامينها والمستمدة من الطبيعة والواقع وجعلها مسوغة في عيون الناظرين ، وهذا ما سعت إليه نظرية القبح في ميدان البحوث والدراسات الجمالية وأصبح حقلاً من حقول الفلسفة الجمالية الحديثة واحد مسائلها الأساسية .. وهذه النظرية وقد نفضت عن نفسها غبار الماضي ، جاءت كرد فعل ثوري وجذري عنيف ومتطرف ضد الجماليات الكلاسيكية القديمة . والتي رأت أنها تقف عائقاً خطيراً دون تحقيق قفزة تاريخية متطورة في عالم الفن والإبداع ، ورأت ، أيضاً ، أنها تسير على نهج واحد وأسلوب واحد ، والفن قد استهلك أغراضها . وقد (أتى عصر الذرة يفتت كل وجود ويشتت كل وحدة ، ولم يعد الفيلسوف يسعى اليوم إلى تحديد تعريف ثابت للجمال ، بعدما ظهر له استحالة هذا التعريف وبعدما اكتسبت قيم النقص والقبح قيمتها الأستطيقية ودخلت مجال الجمال ، بل أصبحت وجهاً آخراً من وجوه الجمال ، ومجالاً للتذوق الفني ، وتعبيراً عن ذات الإنسان ومرآة لباطنه الذي يموج بالأسرار)(٣٢) . فلقرون طويلة جداً كانت المبادئ والقوانين الكلاسيكية والأكاديمية في الفن هي السائدة في اهتمامها بالجمال وبمثال الجمال ، حيث انتهجت المثالية في محاكاتها الفنية للواقع والطبيعة ، وهي في هذه المحاكاة كانت لا تنتخب إلا الموضوعات (النبيلة) التي تحمل في ذاتها قيماً عليا تصبح في العمل الفني المنجز مادته الجوهرية المستمدة أساساً من قيم الدين والخير والأخلاق .. ومع تنامي الفكر الفلسفي والفني الحديث في القرن التاسع عشر تغيرت هذه المبادئ وظهرت حركة مناهضة (تعمل على الفصل ما بين الفن والجمال وترى أن الفن في حقيقته لا يمت بصلة إلى الجمال ، وانه مستقل بخصائصه الجوهرية عنه تمام الاستقلال)(٣٣) .

والحقيقة أن الجمالية الحديثة لم تدعو إلى فصل الفن عن الجمال فحسب بل كانت دعوتها في الأساس إلى إبعاد القيم الفنية عن القيم الدينية والأخلاقية ، لتخلص قيم الفن ، أولاً من أية سلطة خارجية ليست من طبيعة الفن نفسه ولتفسح المجال للفنان للولوج إلى عوالم جديدة غير مألوفة ، حتى وان كانت هذه العوالم قبيحة في أشكالها أو مضامينها . فقيمة الفن باتت لا تدرك إلا في ذاته ولذاته ، بحسب رأيها . فأخذ الفنان يبحث في عوالم الحس والعقل والخيال عن مظاهر الرذيلة والنقص والتحلل والتفكك والتشويه والانحراف .. ونحو ذلك واعتمادها سمات أساسية في عمله ، ولاسيما في الرسم والنحت وفي مجال الفنون الأدبية الأخرى أيضاً. وترك سمات الوحدة والتنوع والتناسق والتناسب والتوازن ، التي سادت في الجماليات السابقة ، إلى غير رجعة . وآية ذلك (أن الكثير من الأعمال السينمائية كقصص الزلازل ، والطيور والفك المفترس قد حازت على جوائز فنية وتقديرية رغم أن موضوعاتها تثير الفزع والرعب في قلوب المشاهدين .

وقد يتصور البعض ، أنها أعمال فنية مرعبة أو قبيحة بيد أنها تنطوي على بعد فني عميق ، ولمسة جمالية حين تجذب انتباه المشاهدين وتستثير انفعالاتهم وعواطفهم)(٣٤) .

وأما بالنسبة للفن الإسلامي فلم يثبت تعمده القبح في أعماله الفنية ، والعكس هو الصحيح ، فقد كان الجمال مطلبه الأساس في الأشكال والمضامين ، وفي الأساليب والتقنيات .

وفي حقيقة الأمر لم يكن الفن الإسلامي يهتم بمحاكاة هيئة الإنسان أو صور الطبيعة والحياة المختلفة ، لذلك كان في منأى عن هذه الإشكالية . ونحن إذ نتابع تداعيات هذه الإشكالية ، في الفن الغربي والأوربي الحديث ، فما ذلك إلا من باب المحافظة على تراثنا الأصيل من الهجمة الفكرية والثقافية والفنية الغربية والأوربية الحديثة التي باتت تهدد مجتمعنا تهديداً متزايداً . فلقد نشأت نظرية القبح لتكون مطلباً بديلاً في هذا العصر الذي شهد انقلاباً جذرياً في المفاهيم الجمالية والفنية حيث رأت في القبح قيماً جمالية قادرة على إثارة الحس والوجدان إذا امتدت إليه يد فنان ماهر يستطيع أن يضفي عليه مشاعره الخاصة وبأسلوبه الفني البليغ ليقدمه لنا في صورة جديدة وجذابة . (فنظرية القبح في القرن التاسع عشر قد نمت وتضخمت وأصبحت جزءاً لا ينفصل عن النظرية الأستطيقية (الجمالية) . بل أن ما يميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو التغلب على مشكلة القبح . والانتقال من المجرد إلى المحسوس)(٣٥)، أي الانتقال بالقبح من مفهومه النظري المعقول إلى ميدان التطبيق العملي المحسوس . ونظرية القبح قد رسخت وروجت مصطلحاً بات مألوفاً في تداوله منذ ذلك الوقت وهو مصطلح (جماليات القبح) وعدته فتحاً كبيراً في عالمي الفن والإبداع . وقد تبنته في مناهجها كثير من المدارس الفنية الحديثة والمعاصرة . (فالواقعية) و (الطبيعية) بصفة خاصة لتبالغان في تجميل القبيح وإلقاء رداء الكلمة الحلوة والفن الجميل على جسده البشع ... ولشدة التأكيد على ممارسة فنية كهذه ، يتجاوز القبح دمامته في نظر الناس ، ويتحول بكل ما يحمل من قيم لا أخلاقية ، وتراكيب دميمة ، إلى قيمة مطلوبة وشيء جميل)(٣٦) .

إن إشكالية القبح التي افرزها الفن في المجتمع الغربي والأوربي الحديث هي في حقيقتها ليست إشكالية فنية وإنما إشكالية أخلاقية أفرزتها طبيعة الصراعات السياسية والتناقضات المادية والاقتصادية في هذا المجتمع . ساعدها في ذلك التوجه العام في الفن نحو محاكاة الحياة والطبيعة ، اللتان غلب عليهما مظاهر القبح والتحلل والفساد .. حيث سهل على الفنانين استساغة موضوعات القبح ونقلها في أعمالهم الفنية .. ولكن الحياة والطبيعة وبكل ما تحمله من مظاهر الجمال أو القبح لا يمكن أن تكون مسؤولة عما يقدمه الفن أو ما يحمله الفنان من أفكار وعواطف وقيم مختلفة (فجمال الطبيعة قد يكون مادة للفن ، ولكن ليس جمال هذه الطبيعة هو الذي يجعل العمل الفني جميلاً ، لأنه كثيراً ما يكون جميلاً في الوقت الذي ينقل إلينا فيه أشياء هي في ذاتها قبيحة . فالجمال في العمل الفني أو القبح فيه ليس هو الجمال المتمثل في الطبيعة أو قبحها ، وإنما هو شيء أضيف إلى ما في هذه الطبيعة من جمال أو قبح ، لنسمه – وسنطلقها ببساطة – الشعور)(٣٧) . فشعور الفنان هو الذي يخلع على الطبيعة ، في عمله الفني ، تقديراً جمالياً معيناً (وهذا يجعل تقدير الفنان عند ابرازه القبح بصورة جميلة ومتقنة يمتاز عن تقديره عند ابراز الجميل جميلاً لان خلق القبيح في صورة جمالية دقيقة يتطلب جهداً فنياً كبيراً)(٣٨).

أما الإسلام فأنه ما أنفك يوماً، يدعو إلى تمثل الجمال في الأفعال والأقوال وفي الأشكال والمعاني ، ولكنه لا يمانع ، في الوقت نفسه ، من دخول موضوعات القبح في العمل الفني بشرط عرض هذه الموضوعات القبيحة على أنها قبيحة وليس على أنها جميلة . وعلى الفنان أن يعرض هذه الموضوعات على حقيقتها من دون تزييف أو تحريف .

والإسلام ينظر إلى إشكالية القبح في الجماليات الغربية الحديثة على أنها ليست ناتجة عن فساد في الذوق حل لدى الذائقة فحسب ، بل هو فساد في الأخلاق أولا وقبل كل شيء . (فالإسلام لا يسمح بتجميل القبيح ورفعه إلى درجة المشروعية في الرؤية والتعامل والإعجاب .. لان عملاً كهذا لا يعدو أن يكون تزييفاً للواقع ، وكذباً على الحقيقة ، ومحاولة لوضع الطلاء المبهرج على ما هو بطبيعته مستهجن مرذول ... بل إن هذا ليقود أحياناً إلى الوقوع في الحرام ، حيث يلتبس الحق بالباطل ، من خلال تحول الممارسة المحرمة إلى فعل مقبول)(٣٩) . قال تعالى (فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ) (التوبة / ٢٧) .
والقرآن الكريم ، بوصفه الركيزة الأساسية لأي نظرية جمالية في الإسلام ، قد تعامل مع موضوعات القبح في الطبيعة والواقع وفي الحياة الدنيا والآخرة وعرضها لنا بأسلوبه البليغ والمؤثر ، على أنها موضوعات قبيحة ليس إلا .

أما ما عرضه لنا من جمال فيكمن في أسلوب العرض وليس في الموضوع المعروض . وفي ذلك سر من أسرار إعجازه البلاغي والجمالي المتعاظم ، فصورة الكفار ، في ألقرآن الكريم ، وهم يحترقون بنار جهنم ويسحبون بالحديد والسلاسل ويأكلون من شجرة الزقوم ويشربون من ماء الحميم ، بوجوههم السوداء وعيونهم الزرقاء وأمعائهم المتقطعة .. ونحو ذلك هي صورة قبيحة وبشعة والقرآن الكريم عرضها كذلك لترهيب الناس وتحذيرهم من الوقوع بما وقع فيه الكفار .

الفصل الرابع

أولاً : نتائج البحث:

١- خلص البحث إلى أن القبح ظاهرة حقيقية وموضوعية ذميمة تواجه جميع ملكات الإنسان الحسية والعقلية والروحية والنفسية .

٢- وجد البحث أن القرآن الكريم قد تناول مفهوم القبح وعبر عنه بألفاظ مختلفة ، على انه صفة دنيا مذمومة في الأشكال والأفعال ، أو الموضوعات التي يقع فيها .

٣- كشف البحث عن إعجاز جمالي قرآني في طريقة تعامله مع موضوعات القبح في الحياة الدنيا والآخرة بأسلوب جمالي مؤثر ومحافظ ، في الوقت نفسه على قبحية هذه الموضوعات ، ليس إلا ، والقرآن بهذا الأسلوب يعطينا مثلاً أعلى في طريقة التعامل فنياً مع القبح .

٤- وجد البحث أن الدرس الذي يمكن أن نستخلصه من الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في إشكالية التحسين والتقبيح العقليين الذاتيين ، هو أن الشرع إذا حكم على الشيء بالقبح فان هذا الشيء سيكون قبيحا بصورة

مطلقة بخلاف العقل الذي لا يثبت حكمه على شيء أبداً .

٥- وجد البحث أن كلاً من المتصوفة وفلاسفة الجمالية (الاستطيقية) المحدثين والمعاصرين قد أنكروا وجود القبح ، إلا أن سبب إنكارهما يختلف الواحد عن الآخر . وذلك بسبب مرجعياتهم الفكرية التي آمنوا بها .

٦- إن إشكالية القبح في الفن الغربي الحديث ، هي ليست إشكالية فنية أو ذوقية وإنما هي إشكالية أخلاقية – أولا وقبل كل شيء – تعبر عن تدني المستوى الأخلاقي والقيمي الذي يعيشه ذلك المجتمع . كما أن الإعلاء من شأن القبح في الفن تحت شعار حرية الفن والتقدم والتجديد والإبداع .. لا يدل إلا على فساد في الذوق وانحراف في المفاهيم .

ثانياً : الاستنتاجات :

١- لقد نظر الإسلام إلى القبح بحذر شديد وتعامل معه بشكل موضوعي وميزه عن الجمال في القيمة والتقدير ، وذلك انطلاقاً من قاعدة أساسية وهي إحقاق الحق وإبطال الباطل وعدم تلبيس الحق بالباطل أو الباطل بالحق . وعلى هذا الأساس فالإسلام لا يعترض على تعامل الفنان مع موضوعات القبح في عمله الفني بشرط أن يعرضها على حقيقتها من دون تزييف أو تحريف . ولكن الإسلام يعترض بشكل قاطع على تجميل القبيح في شكله ومضمونه - تحت أي مسمى – وتسويغه في عيون الناس أو جعله مألوفاً ومحبوباً في نفوسهم .

٢- وجد البحث أن الفنون الإسلامية كانت في منأى عن إشكالات القبح لأنها في الأساس لم تعتمد في منهاجها محاكاة الطبيعة أو الواقع أولاً ، ولأنها رأت في الجمال مبدأ علوياً تبنته في أشكالها ومضامينها التعبيرية .

الهوامش :

١. الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب ألقرآن ، ص ٣٩٠ .
٢. ابن منظور ، لسان العرب ، ج٢ ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .
٣. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج٢ ، ص ١٨٥ .
٤. د. رمضان الصباغ ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق ، ص ١١٧ .
٥. المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
٦. عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص ٣٥ .
٧. المصدر السابق ، ص ٣٦ .
٨. العقاد . عباس محمود ، الله / كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ، ط٢ ، ص ١٤٣ .
٩. حسن محمد حسن ، الأصول الجمالية للفن الحديث ، ص ١٣٥ .
١٠. عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص ٤١ .
١١. أميرة حلمي مطر ، في فلسفة الجمال من أفلاطون إلى سارتر ، ص ١٠٣ .
١٢. المصدر السابق ، ص ١١٦ .
١٣. ابن منظور ، لسان العرب ، ج٢ ، ص ٤٤٩ .

١٤. رمضان الصباغ ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق ، ص ١٢٠ .
١٥. ستولنتيز . جيروم ، النقد الفني / دراسة جمالية وفلسفية ، ص٤٠٦-٤٠٧ .
١٦. د. رمضان الصباغ ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق ، ص ١٢٢-١٢٣ .
١٧. د. راوية عبد المنعم عباس ، القيم الجمالية ، ص ٣٢ .
١٨. ستولنتيز . جيروم ، النقد الفني / دراسة جمالية وفلسفية ، ص ٤١١ .
١٩. التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ج١ ، ص٣٤٩ .
٢٠. د. رمضان الصباغ ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق ، ص ١٢٢ .
٢١. العقاد ، عباس محمود ، الله / كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ، ط٢ ، ص ٢٠٨ .
٢٢. التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ج١ ، ص ٣٤٩ .
٢٣. ستولنتيز . جيروم ، النقد الفني / دراسة جمالية وفلسفية ، ص ٤١٢ .
٢٤. التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ج٢ ، ص١٥٠ .
٢٥. احمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج٣ ، ط١٠ ، ص ٤٧-٤٨ .
٢٦. د. صلاح الدين بسيوني رسلان ، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ، ص ١٤٢ .
٢٧. احمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج٢ ، ط١٠ ، ص٤٩ .
٢٨. د. صلاح الدين بسيوني رسلان ، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ، ص ١٤١ .
٢٩. أميرة حلمي مطر ، فلسفة الجمال ، كتاب الجيب ، ص ٨٤ .
٣٠. د. راوية عبد المنعم عباس ، القيم الجمالية ، ص ٣١ .
٣١. د. رمضان الصباغ ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق ، ص ١٢١ .
٣٢. أميرة حلمي مطر ، فلسفة الجمال ، كتاب الجيب ، ص ٨٥ .
٣٣. حسن محمد حسن ، الأصول الجمالية للفن الحديث ، ص ١٤ .
٣٤. د. راوية عبد المنعم عباس ، القيم الجمالية ، ص ٣٢ .
٣٥. عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص ٥٥ .
٣٦. عماد الدين خليل ، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، ط٢ ، ص ٤٢ .
٣٧. عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص ٦٢ .
٣٨. د. راوية عبد المنعم عباس ، القيم الجمالية ، ص ٣٣ .
٣٩. عماد الدين خليل ، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، ط٢ ، ص ٤١ .

مصادر البحث

ألقرآن الكريم
١- ابن منظور ، لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، ب ت .
٢- احمد أمين ، ضحى الإسلام ، ط ١٠ ، بيروت ، لبنان : دار الكتاب العربي ، ب ت .
٣- أميرة حلمي مطر ، فلسفة الجمال ، كتاب الجيب ، مشروع النشر المشترك ، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٤- أميرة حلمي مطر ، في فلسفة الجمال من أفلاطون إلى سارتر ، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر , ١٩٧٤ م.
٥- التهانوي . محمد علي الفاروق ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ج١ ، تحقيق : لطفي عبد البديع ، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة ، مطبعة السعادة ، ١٩٦٣م .
٦- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج٢ ، الشركة العالمية للكتاب .
٧- حسن محمد حسن،الأصول الجمالية للفن الحديث ، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي.
٨- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب ألقرآن ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر .
٩- د. راوية عبد المنعم عباس ، القيم الجمالية ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية :١٩٨٧.
١٠- ستولنتيز . جيروم ، النقد الفني / دراسة جمالية وفلسفية ، ت : فؤاد زكريا ، ط/٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١م .
١١- الصباغ . د.رمضان ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، إسكندرية : ١٩٩٨ م .
١٢- د. صلاح الدين بسيوني رسلان ، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة : ١٩٩٠م .
١٣- عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ط٢ ، ١٩٦٨م .
١٤- العقاد . عباس محمود ، الله / كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ، ط٢ ، مصر : دار المعارف بمصر .
١٥- عماد الدين خليل ، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، بيروت : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، ط٢ ، ١٩٩٨م .